الفصل الأول

سفر ثـرى وغريب

إن سفر الرؤيــا به من الأسرار قدر ما به من كلمات

«چيروم»

ملصق يطالعنا هنا وهنـــاك على لوحـات العربات فى شـوارع أمريكـــا وطرقها يقــول : «**أنا أعرف النهاية... سينتصر الرب**».

إنهـا عقيـدة تجمـع بـين الأتقيـاء مـن اليهـود والمسيحيين والمسلمين، ولـو أنهـم قـد يتماحكون فيما تعنيه كلمة «الرب»، إلا أن الملصق الصريح يخفى وراءه لغزًا عميقًا دائمًا: فالبشر من كافة الأديان وفى كل زمان ومكان يتساءلون متى سينتهى العالم وكيف؟ وفى أيامنا هذه يُطرح هذان التساؤلان أنفسهما بالطبع ولكن يطرحهما ويجيب عنهما علماء لا رجال دين. إلا أن «النهاية» بالنسبة للمسيحى التقى تشير إلى سيناريو يوصف بتفاصيل مخيفة تخلع القلوب فى أكثر أسفار الكتاب المقدس إثارة للفزع، أى رؤيا يوحنا اللاهوتى المعروف بسفر الرؤيا.

بداية النهاية ـ طبقًا لما ورد بسفر الرؤيا ـ ستصاحبها علامات غامضة: شمس داكنة، وقمر بلون الدم، ونجوم تسقط على الأرض، وجبابرة وأدعياء للنبوة، ووباء وطاعون ومجاعة. ثم يظهر الشيطان الذى يعرف بعدو المسيح، وتصبح له السطوة المطلقة على الأرض. وبعد سبع سنوات من ظلم عدو المسيح وقهره، ينزل يسوع المسيح من السماء متخفيًا فى هيئة ملك محارب ليقود جيشًا سماويًا من قديسين وشهداء يُبعثون، وينتصر على حشود الشيطان فى معركة أرمجدون، ثم يسلسل الشيطان فى أغلال ويحبسه فى حفرة لا قرار لها، ويقيم مملكة أرضية يتولى حكمها لألف سنة.

وفى نهاية الألفية يتحرر الشيطان من أغلاله؛ فيضطر المسيح لخوض معركة أخرى وأخيرة. وفى النهاية يُبعث الموتى ويحاسب الأحياء والموتى على السواء، وتنمحى

الأرض بصورتها التى نعرف وإلى الأبد. ونهاية العالم حسب ما ورد بسفر الرؤيا يعقبه حلول «سماء جديدة وأرض جديدة» فردوس سماوى يخلد فيه القديسون والشهداء المسيحيون فى نعيم مقيم، بينما يسقط كل من عداهم مع الشيطان فى بحر من نار وكبريت.

هذا ملخص سفر الرؤيا، لكن النص نفسه أغنى وأغرب(*). والمشهد المخيف الذى يستحضره كاتب النص يصور الرب والشيطان والحمل والوحش وعاهرة وامرأة تضع حملها، وملائكة وشياطين بأعداد لا حصر لها، ووحوش خيالية يستعصى تصورها إلا فى كتاب هزلى أو فيلم رعب. وفى بعض مشاهده نجد أن سفر الرؤيا لا يزيد عن نموذج قديم من المشاهد النفسية المثيرة وأفلام الوحوش، والصور التى يتضمنها تثير ردود فعل لا تختلف عما تثير هذه المشاهد فى عقل الإنسان.

ويحظى سفر الرؤيا فى أيامنا هذه بجمهور واسع من القراء فى الأوساط الأصولية المسيحية، إلا أن الحبكة والشخصيات تبدو مألوفة حتى بالنسبة لمن لم يسبق له أن اطلع على آخر أسفار العهد الجديد (الإنجيل). وفكرة أن العالم سينتهى (قريبًا) ــ بكل ما تتضمنه من صور بصرية وهمية وكلمات وأرقام وألوان وصور وأحداث كما يصورها سفر الرؤيا ـ تعد جزءًا من نسيج الحضارة الغربية، سواء فى الثقافة العليا أو فى الثقافة الشعبية، بدأت فى العهود التوراتية السحيقة، واستمرت إلى عصرنا هذا. فمعركة أرمجدون و«فرسان الرؤيا الأربعة» و«الختم السابع» و«عاهرة بابل العظيمة» و«المسيح الدجال» و«حاصد الأرواح الشرس» و«عناقيد الغضب»(**) غادرت مكانها على صفحات سفر الرؤيا ووجدت طريقها إلى أرفع الأعمال الأدبية والفنية والموسيقية وصفحات الرياضة فى الصحف وشاشة السينما، وأفضل الكتب مبيعًا فى الغرب.

(*) لمزيد من الاطلاع أوردنا النص الكامل لسفر الرؤيا فى نهاية الكتاب بعناوينه الجانبية نفسها التى تميز شخوصه وأحداثه والنقاط التى يتضمنها.

(**) تسمى إسرائيل حملاتها العسكرية بأسماء توارتية، مثل عناقيد الغضب، كذلك تفعل الولايات المتحدة بعض الأحيان.

ولطالما استُعمل سفر الرؤيا كدليل شفرى لكشف المعانى الخفية وراء أحداث التاريخ الجسام وشخوصه، من حروب وثورات وملوك وغزوات وأوبئة وكوارث طبيعية. وتم تدوير كلمات السفر وعباراته وشخوصه ومشاهده وأعيد صوغها عند فنانين وشعراء ووعاظ ومتخصصين فى فن الدعاية، وكل ذلك لخدمة أغراض دينية أو سياسية أو ثقافية معينة. فغزو الصليبيين القدس فى العصور الوسطى، و«نيران الزهو» فى فلورنسا فى عصر النهضة، وإطلاق تسمية «العالم الجديد» على أمريكا عندما اكتشفت حديثًا، والرايخ الذى وعد أدولف هتلر بأن يدوم لألف سنة، كلها أمثلة على ما كان لسفر الرؤيا من أصداء غريبة ومشوشة عبر التاريخ. ولا تزال مخاوف نهاية العالم وأخيلته تجد من يروج لها فى أفلام هولى وود، وفى أكثر الروايات مبيعًا وفى دعوات المبشرين الإيڤانجليكيين التليفزيونيين وعلى لسان المشتاقين لكرسى الرئاسة.

ولا يزال سفر الرؤيا يعد عند القراء العاديين ـ وحتى بين المسيحيين التقدميين على اختلاف طوائفهم ـ من غرائب الكتاب المقدس على أحسن الفروض، وعلى أسوئها كنوع من صحاف المختبرات لتنمية الشذوذ الدينى الخطير. ومعظم القراء اليهود لم يكلفوا أنفسهم عناء مطالعة نسخة من أناجيل النصارى، وإذا فعلوا فإنهم يتكدرون من وصف اليهود فى سفر الرؤيا بأنهم أعضاء «مجمع الشيطان»[1]. بل إن سفر الرؤيا يُنظر إليه دائمًا بعين الشك باعتباره «شيئًا غريبًا ينتمى بالصدفة وبصورة محرجة للإنجيل» حتى فى أوساط المسيحيين الأتقياء وحتى فى العهود السابقة[2]. وهكذا فإن التناول الساخر والازدرائى لسفر الرؤيا فى «The Seventh Seal» (الختم السابع) لإنجمار برجمن، الذى يعد من الأفلام بعد الحداثية الغامضة ويتساءل عن وجود الرب أصلاً، لا ينطوى على مفارقة تاريخية فى مجمله.

يصيح أحد المبشرين المتحمسين فى قمة العصور الوسطى وهو يجول وسط ريف انتشر فيه الطاعون برفقة قوم يضربون أنفسهم بالسياط تكفيرًا وتوبةً قائلاً: «الموت وراء ظهوركم. منجله يومض فوق رءوسكم. فمن منكم سيتلقى الضربة الأولى؟ كلكم هالكون، أتسمعون؟ هالكون! هالكون! هالكون!» فيجيبه فارس بدت عليه ضربات السيوف فى المعارك عائد لتوه من الحملات الصليبية وتحرر من أوهام الرب والإنسان

قائلاً: «هل هم فعلاً ينتظرون من الناس فى هذه العصور الحديثة أن يأخذوا هذا اللغو والهراء مأخذ الجد؟»[٣].

وسواء اعتبرنا سفر الرؤيا لغوًا أم لغزًا إلهيًّا فإن ثمة حقيقة تبقى، وهى أن هناك أعدادًا كبيرة من الناس فى العالم الحديث لا تزال تؤمن بسفر الرؤيا بكل سذاجة وبجدية بالغة، ولا يقتصر الأمر على المؤمنين الأتقياء الذين يعلنون عن إيمانهم العميق بأكاذيبهم الكبرى. بل إن من قراء سفر الرؤيا فى أمريكا المعاصرة قلة ممن لديهم القدرة على تدمير العالم بشفرات إطلاق ترسانة أمريكا النووية.

كبابوات العصور الوسطى وملوكهم الذين كانوا يراجعون العرافين الرؤيويين طلبًا للنصيحة فى تصريف شئون الحكم هناك، هناك أكثر من رئيس أمريكى فى العصور الحديثة تمت تنشئتهم على عقيدة تأمره بمطالعة سفر الرؤيا وتدبره باعتباره مشيئة الرب النافذة فى التاريخ الإنسانى. من ثم فإذا كان سفر الرؤيا لا يزال يجد من يؤمن به بين من لديهم القدرة على تدمير العالم، فنحن بحاجة ماسة لمعرفة ما ورد فيه وكيف تهيأت الظروف لتدوينه أصلاً، وكيف استُعمل وأسىء استعماله على مر تاريخ عالم يأبى أن ينتهى.

يوصف سفر الرؤيا بأنه «تاريخ المستقبل»[٤]. وبالنظر إلى الأمام من منظوره فى الزمن البعيد يصف كاتب السفر بكل ثقة «أشياء لا بد أن تحدث قريبًا»[٥]. إلا أن نبوءاته لم يتحقق منها شىء حتى الآن ولو بأى صورة صريحة أو حَرفية على الأقل، لذا فإن القراء فى كل عصر يحاولون تفسير فشل نبوءات سفر الرؤيا بالقول بأن رؤاه ينبغى فهمها كوصف رمزى لأحداث ستقع بعد موت واضعه ميتة طبيعية بمدة طويلة. ومع ذلك فكل جيل جديد يؤمن بأن زمانه آخر الأزمان.

من ثم فعندما يتأمل هال ليندسى إحدى فقرات سفر الرؤيا المخيفة والمحيرة فى آن مثلاً فى كتابه The Late Great Planet Earth[*] (كوكب الأرض العظيم الراحل) ـ «وَسَمِعْتُ أَنَّ جَيْشَهُمْ يَبْلُغُ مِئَتَىْ مِلْيُونِ مُحَارِبٍ! [١٧] وَرَأَيْتُ فِى الرُّؤْيَا الْخُيُولَ وَعَلَيْهَا

(*) بيع من هذا الكتاب حوالى ٢٠ مليون نسخة، وتحول لفيلم سينمائى.

فُرْسَانٌ يَلْبَسُونَ دُرُوعًا بَعْضُهَا أَحْمَرُ نَارِيٌّ، وبَعْضُهَا بَنَفْسَجِيٌّ، وَبَعْضُهَا أَصْفَرُ كِبْرِيتِيٌّ. وَكَانَتْ رُءُوسُ الْخَيْلِ مِثْلَ رُءُوسِ الأُسُودِ، تَلْفُظُ مِنْ أَفوَاهِهَا نَارًا وَدُخَانًا وَكِبْرِيتًا» ـ يستنتج أن كاتب سفر الرؤيا كان يشير إلى «منصة صواريخ پالستية متنقلة» سيتم نشرها فى حرب نووية حرارية مستقبلية (وأخيرة). ومن الغريب أن هذه القراءات الدينية كانت تقوم على فرضية أن واضع سفر الرؤيا وجمهوره الأصلى لم يكونوا يدركون مغزى الظواهر التى يرد وصفها فى النص الإنجيلى[٦].

ولكن حتى لو كان سفر الرؤيا عملاً يتضمن نبوءات لا تتحقق، فإنه لعب دورًا فريدًا فى العالم الذى نعيش اليوم. بل إن سفر الرؤيا بمثابة عدسة يمكن من خلالها رؤية التاريخ المدون للحضارة الغربية بطرق جديدة ومفيدة. وعلى مر القرون العشرين التى مرت منذ أن أنشئ هذا السفر ـ وفى كل مرحلة تنازعته فيها أفكار فى الثقافة والسياسة تدحضه ـ كان سفر الرؤيا حاضرًا دومًا بصورة ظاهرة أحيانًا، وتحت السطح مباشرة فى أحيان أخرى.

يوصف سفر الرؤيا ـ أو النبوءة كما يسمى آخر أناجيل العهد الجديد ـ بأنه إما وحى من الرب، أو عمل أدبى كبير لكاتب موهوب وحذر من البشر، أو تهاويم مهووس دينى خرف، وبعض القراء لديهم القدرة على الإيمان بأنه يمثل الأوصاف الثلاثة جميعًا فى وقت واحد.

وبالنسبة للمؤمنين حقًّا فإن سفر الرؤيا «الإنجيل الوحيد الذى دونه المسيح» على حد وصف أحد المفسرين المتدينين؛ لأن واضعه يدعى أنه لم يكن يكتب إلا ما كان يوحى إليه من علٍ[٧]. إلا أن هناك قراء آخرين لسفر الرؤيا يفسحون المجال لذكاء البشر ولبراعة الإنسان: «إنه أعظم ما أنتج العصر المسيحى الأول من قصائد»[٨]. وهناك قلة من النقاد المعجبين بالنص يجدون أنفسهم مضطرين لوصف سفر الرؤيا بأنه «إباحية رؤيوية» أو «قصيدة جنونية» أو «خيال إبداعى لمريض فصامى» أو «تهاويم مخبول» على حد وصف توماس چيفرسن[٩].

وربما كان نص سفر الرؤيا مجموعة مواعظ ألقاها شفاهةً خطيب مفوه أو واعظ فصيح كان يجول من بلدة لأخرى فى آسيا الصغرى منذ قرابة ألفى سنة، ويبشر

بتحذيراته الرهيبة عن نهاية العالم لعدد معدود من المسيحيين الأوائل ارتضوا الاستماع إليه. إذ يقول كاتبه: «طُوبَى لِلَّذِى يَقْرَأُ وَلِلَّذِينَ يَسْمَعُونَ أَقْوَالَ النُّبُوَّةِ وَيَحْفَظُونَ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهَا لأَنَّ الْوَقْتَ قَرِيبٌ»[١٠]، لذا فإن علماء الكتاب المقدس يشيرون دائمًا لمن كانت الرؤيا موجهة إليهم بكلمة «سامعين»، وهى عبارة تذكرنا بأن سفر الرؤيا لم يكن سوى عظة ترتل قبل أن يتحول إلى نص، وتفسر السبب فى أن قوة بيانه وصوره البلاغية لا تتضح إلا «إذا رُتل النص بصوت مسموع كما أراد له مؤلفه»[١١].

ومن الغريب أن كاتب سفر الرؤيا كان يهودى المولد والنشأة، وربما كان لاجئ حرب فر من يهوذا بعد أن شهد دمار هيكل يهوا بأورشليم [القدس] على يد جيش الرومان المحتل، فأخذ يعبر عن شعور الازدراء والاشمئزاز تجاه غزاة أرض اليهود. ومن المؤكد أن مؤلفه كان واحدًا من اليهود ممن كانوا يعتبرون يسوع الناصرى المسيح الموعود الذى طال انتظاره. ومع ذلك يظل سفر الرؤيا متأصلاً فى التاريخ اليهودى والسياسة اليهودية واللاهوت اليهودى حتى وصف بأنه «وثيقة يهودية ذات لمسة مسيحية طفيفة»[١٢]. بل إن سفر الرؤيا يمكن وصفه بأنه نوع من الـ «مِدراش» على أسفار الأنبياء فى العهد القديم العبرى، ويوصف مؤلفه بأنه «حاخام مسيحى»[١٣].

وما إن نُسخ سفر الرؤيا على الرق أو أوراق البردى فى أواخر القرن الأول، حتى بدأت بعض السلطات الكنسية الحذرة تنظر إليه بحذر وارتياب. إذ هالهم ما به من مشاهد عنف دامٍ واختلاط جنسى متقد توصف بشكل مشهود على صفحاته. وأثارت غضبهم فكرة حكم الملك يسوع لمدة ألف سنة على مملكة أرضية، فصدمتهم باعتبارها فكرة يهودية صرفة لما ستكون عليه مملكة المسيح. كما ساءهم ما لم يرد له ذكر فيه، فلا تطالعنا فى سفر الرؤيا مشاهد مألوفة من حياة يسوع الناصرى ومماته، ولا شىء من تعاليمه الأخلاقية السامية.

وكان الأخطر من كل هذا فى ذلك الوقت وحتى الآن ذلك المشهد المحير لبشر عادى يزعم أنه سمع صوت الرب. فيقول كاتب الرؤيا: «كُنْتُ فِي الرُّوحِ فِي يَوْمِ الرَّبِّ وَسَمِعْتُ وَرَائِى صَوْتًا عَظِيمًا كَصَوْتِ بُوق قَائِلاً: «أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ الأَوَّلُ وَالآخِرُ. وَالَّذِى تَرَاهُ اكْتُبْ فِى كِتَابٍ وَأَرْسِلْ إِلَى السَّبْعِ الْكَنَائِسِ الَّتِى فِى أَسِيَّا»[١٤].

وبوحى من نموذج الرؤيا، سمع أناس لم يرزقوا نعمة البلاغة ولكنهم رزقوا أخيلة أكثر سخونة أصواتًا من علٍ، وآل مصير بعضهم إلى أعواد المشانق أو الحرق على الأوتاد، إذ رأت السلطات أن حرية التنبؤ قد لا تؤدى إلا إلى خطأ لاهوتى أو فوضى اجتماعية وسياسية أو ما هو أسوأ، وهى مخاوف ثبتت صحتها وأكثر فى عالمنا.

بل إن سفر الرؤيا يمكن أن يؤدى إلى الجنون. فمن يطالعه من أوله لآخره يجد أن التجربة أشبه بمنام محموم أو كابوس: شخصيات وأشياء غريبة تظهر وتختفى ثم تظهر من جديد، والمؤلف نفسه يتنقل عبر الزمان والمكان، فيجد نفسه حينًا فى السماء وحينًا على الأرض، حينًا هنا والآن، وحينًا آخر فى آخر الزمان، حينًا يشاهد من بعيد وحينًا يشارك فى الأحداث التى يصف. ويشير مؤلف السفر إلى الشخصيات نفسها بأسماء وألقاب مختلفة، ويصف الأحداث نفسها من وجهات نظر متباينة. وشخصيات سفر الرؤيا وأحداثه وكلماته وعباراته - بل حتى أحرفه وأرقامه - تبدو كأنها تومض بمعان رمزية بعيدة المنال.

ولطالما كانت غرابة سفر الرؤيا مصدر حيرة للقارئ المعتدل الواعى بدءًا من عصر الأناجيل وامتدادًا دون انقطاع إلى عصرنا الراهن. ودارت مناقشات بين آباء الكنائس الأولين حول ما إذا كان سفر الرؤيا جزءًا من الكتاب المقدس أصلاً. وأقدم مارتن لوثر على حذفه من ترجمته الألمانية للكتاب المقدس؛ لأنه: «لا ذكر فيه لتعاليم المسيح أو للمسيح نفسه»[(١٥)]. وفيما بعد رفض چورچ برنارد شو سفر الرؤيا برمته باعتباره «سجلاً غريبًا لرؤى مدمن مخدرات»[(١٦)]. واعتبر سى. چى. يونج رؤى سفر الرؤيا غير جديرة بالدرس الجاد «لأن لا أحد يؤمن بها، ولأن الموضوع برمته محرِج»[(١٧)]. حتى علماء الدين الأتقياء يرتابون دائمًا عما يمكن أن يجنيه أى باحث جاد من مطالعة نصه.

يقول أحد مفسرى الكتاب المقدس: «إن سفر الرؤيا إما يعثر على مجنون أو يترك قارئه مجنونًا»[(١٨)].

وسفر الرؤيا مكبل بألغازه وأحاجيه ورموزه لدرجة تجعل النص بحاجة لحل ألغازه لا مجرد مطالعته. يقول أحد علماء الكتاب المقدس فى القرن العشرين: «إما أهمله قراء

الكتاب المقدس لغموضه التام، أو تحول إلى مرتع خصب لغرباء الأطوار من المتدينين»[١٩]. ودوّن أحد علماء اللاهوت بالعصور الوسطى أكثر من ألف صفحة من التفسير فى محاولة لعرض ما فهمه هو من سفر الرؤيا الذى يتكون نصه من اثنى عشر ألف كلمة. بل إن حبكة السفر والمادة الخام التى استقى منها مؤلفه أحد أعظم وأخلد ما أنتج الخيال الإنسانى من أعمال، يمكن تلخيصهما فى عدد من الكلمات أقل كثيرًا.

يتألف سفر الرؤيا من سلسلة من النبوءات عن المستقبل، معظمها مخيف وغامض. ولا شك أن مؤلفه يبدؤه ببضع كلمات من الثناء الغاضب أو التحذير اللاذع لإخوته المسيحيين الذين يعتبرهم سذجًا ومنطوين على أنفسهم ويفتقرون إلى الغيرة. فيقول لكنيسة اللاودكيين ناسبًا لومه إلى الرب نفسه: «لأَنَّكَ فَاتِرٌ وَلَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِى»[٢٠]. وهو يزين النص من حين لآخر بعبارة «طوبى لـ» بهدف إضفاء قدر من الصدق على رؤاه: «هَا أَنَا آتِى سَرِيعًا طُوبَى لِمَنْ يَحْفَظُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هَذَا الْكِتَابِ»[٢١].

وفى معظم المواضع، يكرس مؤلف سفر الرؤيا نفسه لسرد المشاهد المخيفة التى رآها فى رؤية أتته على جزيرة بطموس أمام الساحل الغربى لآسيا. ويحقق كاتبه حالة من الانتشاء الصوفى يرى فيها بين ما يرى من أشياء عديدة أخرى أغرب ـ لفيفة كتب عليها خطة الرب السرية لنهاية العالم. واللفيفة مغلقة بسبعة أختام يفترض أنها من الشمع والطين ولا بد من كسر الأختام السبعة جميعًا لكى تفض وتقرأ.

هنا يبدأ العنصر الأكثر إلحاحًا فى سفر الرؤيا، أى استعمال الكاتب المفرط للرقم سبعة. فهو لا يرى سبعة أختام وحسب، بل أيضًا سبعة من الملائكة، وسبعة كئوس، وسبعة شمعدانات، وسبع كنائس، وسبعة تيجان، وسبع أعين، وسبع أيادٍ، وسبعة قرون، وسبعة ملوك، وسبعة حملان، وسبعة جبال، وسبعة أوبئة، وسبع أرواح، وسبعة كواكب، وسبعة رعود، وسبع نوافير. وتركز قصة سفر الرؤيا بصورته الحالية على ما سيحدث فى السماء وعلى الأرض بعد أن يصل الهلع المتزايد فى آخر الأيام إلى ذروته، حين يُنفخ النفير السابع وتنسكب كأس غضب الرب السابعة، ويحطم حمَل الرب الختم السابع.

والشخصية السماوية التى تكشف المخطط الإلهى لنهاية العالم يسمى «شبيه ابن إنسان» و«ابن الله» و«الروح» و«الحمَل» ـ وكلها مصطلحات مستعارة من التراث المسيحانى اليهودى ـ كما ينحت مؤلف السفر عبارة أنيقة خالدة لا نجدها فى غيره من النصوص المقدسة المسيحية: «أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ»(٢٢) وهو لا يورد اسم «يسوع المسيح» الصريح ولقبه إلا فيما ندر، ويؤثر أن يخفى هوية مصدره السماوى فى الأحاجى والألغاز، فيقول الزائر الذى لا يذكر اسمه على سبيل أنه يقدم نفسه: «وَأَنَا الْحَى وَكُنْتُ مَيْتًا وَهَا أَنَا حَى إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ آمِينَ وَلِى مَفَاتِيحُ الْهَاوِيَةِ وَالْمَوْتِ»(٢٣).

إذن فالرب الذى يجول خلال السفر، هو متغير الأشكال. فهو فى البداية ملك سماوى يرتدى ثوبًا ذهبيًّا وله شعر «أبيض كالثلج» وعينان «كَلَهِيبِ نَارٍ» ممسكًا فى يمناه بسبعة كواكب و«سَيْفٌ مَاضٍ ذو حَدَّيْنِ يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ»(٢٤). وفيما بعد يشاهد مؤلف السفر الشكل المخيف الغريب لحمَل يبدو «كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ» ولكنه مع ذلك يقف منتصبًا و«لَهُ سَبْعَةُ قُرُون وَسَبْعُ أَعْيُنٍ»(٢٥) ـ (٥ : ٦). وفى نقطة ذروة السِّفر، يرى مؤلفه محاربًا إلهيًّا يمتطى صهوة فرس بيضاء ومتوجًا بـ «تِيجَانٌ كَثِيرَةٌ» و«مُتَسَرْبِلٌ بِثَوْبٍ مَغْمُوسٍ بِدَمٍ». وهنا أيضًا يمارس مؤلف السفر لعبة الظهور والاختفاء، فيقول: «وَلَهُ اسْمٌ مَكْتُوبٌ لَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُهُ إلا هُوَ» ثم بعد برهة يكشف قائلاً: «وَلَهُ عَلَى ثَوْبِهِ وَعَلَى فَخْذِهِ اسْمٌ مَكْتُوبٌ: «مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ»(٢٦).

ومع ذلك، فأكثر شخوص سفر الرؤيا تميزًا ووضوحًا هم الأشرار. فالشرير الأكبر «تِنِّينٌ عَظِيمٌ أَحْمَرُ لَهُ سَبْعَةُ رُءُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ وَعَلَى رُءُوسِهِ سَبْعَةُ تِيجَانٍ» يتكشف فيما بعد أنه تلك «الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ الَّذِى يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ»(٢٧). والعملاء الأرضيون للشيطان «وحشان» لأحدهما سبعة رءوس وعشرة قرون يخرج من البحر، والآخر له قرنان وصوت كصوت التنين يطلع من الأرض(٢٨). وهناك مشاهد قليلة يظهر فيها أدعياء ومدعيات نبوة وملوك فاسدون ومنحطون بوفرة كبيرة، وأشرار آخرون عديدون من بشر وجان.

والشخصية الأكثر استفزازًا فى سفر الرؤيا، مثلاً، هى زانية بابل العظيمة.

وتوصف فى السفر كوحش شره جنسيًّا «زَنَى مَعَهَا مُلُوكُ الأَرْضِ» وعشاقها كُثر و«سَكِرَ سُكَّانُ الأَرْضِ مِنْ خَمْرِ زِنَاهَا». والمرأة سكرَى أيضًا ولكن بخمر «مِنْ دَمِ الْقِدِّيسِينَ وَمِنْ دَمِ شُهَدَاءِ يَسُوعَ». وهى «مُتَسَرْبِلَةً بِأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَمُتَحَلِّيَةً بِذَهَبٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَلُؤْلُؤٍ» وفى يدها كأس وهى ممتطية ظهر الوحش القرمزى ذى السبعة رءوس والعشرة قرون. وفى صورة شديدة الصراحة يشير مؤلف السفر إلى أن الكأس «مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا»[٢٩].

وكما أن الحمَل صنو التنين فإن صنو الزانية العظيمة هو الشخصية السماوية لـ«امْرَأَةٌ مُتَسَرْبِلَةٌ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرُ تَحْتَ رِجْلَيْهَا وَعَلَى رَأْسِهَا إِكْلِيلٌ مِنِ اثْنَى عَشَرَ كَوْكَبًا». وفى اللحظة التى تبدأ فيها المرأة فى المخاض، يقف التنين الأحمر أمامها فى انتظار أن يلتهم وليدها. وعندما تضع حملها «ذكرًا عَتِيدًا أَنْ يَرْعَى جَمِيعَ الأُمَمِ بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ» يُختطف وليدها إلى عرش الرب فى السماء وتُعطى «الْمَرْأَةُ جَنَاحَيِ النَّسْرِ الْعَظِيمِ لِكَى تَطِيرَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ» حيث تتم تغذيتها وإيواؤها من التنين الضارى، وفى الوقت نفسه تدور فى السماء رحى معركة بين الشيطان وميخائيل رئيس الملائكة كلٌّ على رأس جيش من الملائكة. وينهزم الشيطان ويُطرد من السماء، ولكنه يهبط إلى الأرض فى أمان، ويشرع فى إنشاء مملكة من البشر[٣٠].

والسبيل الوحيد أمام الرب لكى يهزم الشيطان وأتباعه فى رأى كاتب سفر الرؤيا أن يدمر العالم ويبدأ من جديد بـ«سماء جديدة وأرض جديدة». إلا أن آخر الزمان مرتبط بفتيل بطىء الاحتراق، فلا بد أولاً من أن يمر الأتقياء من المسيحيين بفترة من القهر والاضطهاد ـ فيما يعرف بـ«الضيقة» ـ على أيدى أعوان إبليس بما فيهم «الوحش» الذى يعرف حاليًّا بـ«عدو المسيح» ولو أن هذا المصطلح الأخير لا يرد بلفظه فى سفر الرؤيا. وبداية النهاية لها علامات وآيات: زلازل وسيول وشهب وخسوف ومجاعة وطاعون ووباء، وسلسلة من الحروب الكبرى فى السماء وعلى الأرض.

وبلايا آخر الزمان لها وصف ورد فى بعض من أكثر فقرات الكتاب المقدس تميزًا. فهناك ـ على سبيل المثال ـ فرسان الرؤيا الأربعة المشاهير، كلٌّ على صهوة جواد من لون

مختلف يقتلون «بِالسَّيْفِ وَالْجُوعِ وَالْمَوْتِ وَبِوُحُوشِ الأَرْضِ». وما نفهمه على أنه كوارث طبيعية يرد وصفه بلغة منمقة: «وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمِسْحٍ مِنْ شَعْرٍ، وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ وَنُجُومُ السَّمَاءِ سَقَطَتْ إِلَى الأَرْضِ». ويستحضر مؤلف الرؤيا الوحوش فى صور غير معهودة فى الطبيعة. فعندما يصف سرب جراد مثلاً، فهى حشرات لها وجوه بشر وشعر نساء وأجسام خيول حربية وأنياب أسد وأذناب عقارب سامة[٣١].

ويقول مؤلف الرؤيا فى فقرة شديدة الحدة: «وَفِى تِلْكَ الأَيَّامِ سَيَطْلُبُ النَّاسُ الْمَوْتَ وَلاَ يَجِدُونَهُ وَيَرْغَبُونَ أَنْ يَمُوتُوا فَيَهْرُبُ الْمَوْتُ مِنْهُمْ»[٣٢].

وبعد سبع سنوات من المعاناة تحت حكم الوحش، سيهبط يسوع المسيح إلى الأرض كملك محارب على صهوة جواد على رأس جيش من الملائكة والقديسين والشهداء المبتعثين، وستدور رحى معركة حاسمة فى موقع يعرف بأرمجدون. ويبدى مؤلف الرؤيا شماتته فى وصف الانتقام الذى سينزله حمل الرب بمن ساموا عباده المؤمنين سوء العذاب. وينادى ملك فى طيور السماء أن «هَلُمَّ اجْتَمِعِى إِلَى عَشَاءِ اللهِ الْعَظِيمِ لِكَى تَأْكُلِى لُحُومَ مُلُوكٍ وَلُحُومَ قُوَّادٍ وَلُحُومَ أَقْوِيَاءَ وَلُحُومَ خَيْلٍ وَالْجَالِسِينَ عَلَيْهَا وَلُحُومَ الْكُلِّ حُرًّا وَعَبْدًا صَغِيرًا وَكَبِيرًا»[٣٣].

وسيكبل الشيطان فى أغلال ويسجن فى حفرة لا قرار لها، وسيعيش الناجون من الضيقة فى مملكة أرضية فى ظل حكم يسوع الملك وقديسيه وشهدائه المبعثين ولمدة ألف سنة بالتمام. إلا أن آخر الزمان لم ينته بعد. فسيفك إبليس أغلاله ويضطر يسوع المسيح لخوض الحرب ضده مرة أخرى وضد الأمم المتفرقة التى تمثل حلفاء الشيطان وتعرف حينئذ باسم «ياجوج ومأجوج». وحينها فقط سيلقى بالشيطان وزبانيته وإلى الأبد فى «بُحَيْرَةِ النَّارِ الْمُتَّقِدَةِ بِالْكِبْرِيتِ» حيث «سَيُعَذَّبُونَ نَهَارًا وَلَيْلاً إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ»[٣٤].

حينئذ وأخيرًا سينتهى عالمنا الجاهل ـ الأَرْضَ الأُولَى ـ وسيُبعث كل من عاش على الأرض وسيحاسب الأحياء والموتى ويثابون ويعاقبون كلٌّ حسب مشيئة الرب له. واختبار الخلاص هو الإيمان الحق؛ فمن «يَحْفَظُونَ وَصَايَا اللهِ وَإِيمَانَ يَسُوعَ» سيسمح لهم بالخلود فى النعيم المقيم بالفردوس الجديدة. وفيما عدا ذلك يُلقون جميعًا من

رجال ونساء وأطفال فى «بُحَيْرَةِ النَّار الْمُتَّقِدَةِ بِالْكِبْرِيتِ» فى «ميتة ثانية» مع الشيطان و«الْخَائِفِينَ وَغَيْر الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّجِسِينَ وَالْقَاتِلِينَ وَالزُّنَاة وَالسَّحَرَة وَعَبَدَة الأَوْثَان وَجَمِيع الْكَذَبَةِ»(٣٥).

يشتهر سفر الرؤيا ـ وعلى خلاف بقية الأناجيل ـ بافتقاره للرحمة والمحبة. فهو نص للعقاب مليء بالحقد والنقمة، وحاد فى تطلعه للثأر الدامى من الأعداء. ولا يسمح واضع السفر لقرائه برؤية عالم أرحم إلا فيما ندر، وحين يفعل فإنه يعقب بأنه لن يحل إلا فى النهاية بعد هلاك الأرض بصورتها التى نعرف حيث ستنتشر عليها الجثث وتغرقها سيول دماء تصل «حَتَّى إِلَى لُجُم الْخَيْل»(*). ولن يُسمح بدخول الفردوس السماوى إلا لمن «أَتوا مِنَ الضِّيقَةِ الْعَظِيمَةِ» ومن «غَسَّلُوا ثِيَابَهُمْ وَبَيَّضُوهَا فِى دَمِ الْحَمَلِ»(٣٦).

يقول كاتب سفر الرؤيا فى لحظة نادرة من الرقة والرحمة: «وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِى مَا بَعْدُ وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِى مَا بَعْدُ لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ»(٣٧).

إذن فسفر الرؤيا على الرغم من كل ما به من دفع وعصف ينتهى نهاية سعيدة بالنسبة لمن كُتب لهم الخلاص على الأقل(٣٨). فكل من على الأرض مقدر له فى آخر الزمان أن يعانى أشد المعاناة على يد عدو المسيح ـ وسيهلك معظم من على الأرض بالصورة الرهيبة نفسها ـ لكن قلة مصطفاة منهم سيُبعثون ويحاسبون وينعمون بحياة أبدية فى عالم آتٍ. ويثبت فى النهاية أن لهفة من قدر لهم الخلاص ونفور من لم يقدر لهم الخلاص هما محركا التاريخ.

وما من مثال أوضح من العادة القديمة الخالدة التى تربط عدو المسيح بشخصية تاريخية حية. فوحش سفر الرؤيا إنسان لكل العصور: فاعتُبر محمد(**) المسيح الدجال فى أوائل العصور الوسطى، وصلاح الدين فى عصر الحملات الصليبية، وسلطان

(*) ولمسافة: نحو ٣٢٠ كيلومترًا، كما فسرها كتاب الحياة.

(**) يقصد المؤلف النبى محمدًا ﷺ.

الأتراك العثمانيين الأعظم حين دق أبواب ڤيينا، ونابوليون فى أعقاب الثورة الفرنسية. واتهم مارتن لوثر البابا (أو بالأحرى البابوية) بأنه عدو المسيح، وردها له البابا. ولكل جيل مرشحوه: لينين وستالين، هتلر وموسوليني، روزڤلت وكنيدى، موشيه ديان وأنور السادات، كلٌّ كان يمثل المظهر البشرى للوحش فى عصره.

يمكن اعتبار تضارب الحدس حول هوية عدو المسيح نوعًا من اختبار الشخصية للقلق فى أى عصر من العصور. فحام الشك حول هنرى كيسينجر مثلاً عندما قام بجولاته المكوكية بين واشنطن وموسكو وبكين فى سبعينيات القرن العشرين، ولم يرشح آية الله الخمينى إلا بعد أخذ الرهائن فى طهران فى أعقاب الثورة الإسلامية فى إيران فى سنة ١٩٧٩م. وقبل بضع سنوات، اعتُبر صدام حسين متسابقًا واعدًا؛ بل إن سلسلة «Left Behind»(*) التى حققت أكبر المبيعات، تعتبر بغداد مقر عدو المسيح. ويبدو أن أسامة بن لادن فى أيامنا هذه أخذ مكان صدام حسين باعتباره الخصم الشيطانى الذى تنبأ سفر الرؤيا بمجيئه.

ومن المشروعات المرتبطة بذلك محاولة فك الشفرة التى غرسها واضع سفر الرؤيا فى نصه، أى هوية «الوحش» الذى يرمز لاسمه بالرقم ٦٦٦. وهناك ـ كما سنرى ـ رد مقنع على السؤال، وهو أن ٦٦٦ شفرة رقمية لها قيمة بالأحرف كحساب الجمل ويمكن ترجمتها إلى الاسم اليونانى أو اللاتينى أو العبرى للإنسان الذى يعتبره واضع سفر الرؤيا أداة إبليس. لكن هذا لم يمنع الساعين لحل شفرات الكتاب المقدس ـ الهواة منهم والمحترفون على السواء ـ من انتزاع معان جديدة وغريبة من هذا الرقم المروع نفسه.

واللغة المجازية فى سفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ كان يُقصد بها أشياء بعينها ـ ومختلفة تمامًا ـ لدى كاتب السفر وعند قرائه وجمهوره من الأولين. إلا أن قدرتنا على فهم المقصود برقم الوحش وزانية بابل العظيمة بالنسبة لمسيحى حالم من أصل يهودى فى آسيا الصغرى فى القرن الأول لم يمنع الأجيال المتعاقبة من إيجاد معان مختلفة تمامًا لأنفسهم. وهذا هو سر غرابة سفر الرؤيا وقوة سحره، وهو أن كل جيل جديد من

(*) للقس تيم لاهاى.

القراء، مقتنع بأن الرب وضع معنى خفيًّا فى النص لا يقصد أحدًا غيرهم وموجه لهم هم على وجه التحديد. ومن الغريب أن فشل كل جيل سابق فى حل شفرات سفر الرؤيا يشجع الجيل التالى على مزيد من الاجتهاد فى المحاولة.

إن سفر الرؤيا كنص نبوئى يعد مغلوطًا فى مجمله وبصورة جلية. يتساءل المؤلف الإنجيلى على لسان أرواح الشهداء الموتى قائلاً: «حَتَّى مَتَى أَيُّهَا السَّيِّدُ الْقُدُّوسُ وَالْحَقُّ لاَ تَقْضِي وَتَنْتَقِمُ لِدِمَائِنَا مِنَ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ؟» ويجيب عن تساؤله بوعد صريح يعزوه ليسوع المسيح: «هَا أَنَا آتِي سَرِيعًا»[٣٩]. هذه الكلمات نزلت إلى مستوى التدوين قبل حوالى ألفى سنة، إلا أن قراء سفر الرؤيا لا يزالون فى انتظار يوم الثأر الذى تنبأ به النص القديم بهذا الوضوح وبهذه الثقة.

وليس واضع سفر الرؤيا الشخصية الوحيدة التى فشلت نبوءتها عن آخر الزمان فى النصوص المقدسة المسيحية. فطبقًا لبعض الأقوال الغريبة المنسوبة له فى الأناجيل، يؤكد يسوع لأتباعه أن بعضًا منهم على الأقل سيرون نهاية العالم بأعينهم. وأكد بولس الرسول بدوره هذا الوعد نفسه لجيله من المسيحيين. وكان كلٌّ من يسوع وبولس رحل إلى الرفيق الأعلى فى العصر الذى دون فيه كاتب سفر الرؤيا رؤاه عن «مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَنْ قَرِيبٍ»[٤٠]. وثبت أنها برمتها خطأ ولا يزال العالم قائمًا.

أدى عدم انتهاء العالم فى الوقت المحدد حسب قول أحد علماء الكتاب المقدس المعاصرين، إلى اضطرار المسيحية سواء فى أواخر العصور القديمة أو حاليًّا، إلى إعادة التفكير فى الطريقة التى ينبغى أن تعاش بها الحياة الدنيا[٤١]. وذات مرة اعتلى أحد الأباطرة المسيحيين عرش روما الوثنية فى أوائل القرن الرابع، وفجأة أصبح كل ما ورد بسفر الرؤيا من حقد مرير موجه صراحةً إلى قوة الإمبراطورية الرومانية ومجدها مصدر إحراج يحتاج إلى تعليل. وفى أواخر العهود القديمة، بدا سفر الرؤيا فجأة غير ذى صلة إذا قورن بإنجيل مرقس، مثلاً، حيث يقول: «فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِحُرُوبٍ وَبِأَخْبَارِ حُرُوبٍ فَلاَ تَرْتَاعُوا»، فيحذر يسوع أتباعه بكل رقة قائلاً: «لأَنَّهَا لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ الْمُنْتَهَى بَعْدُ»[٤٢].

ولا يزال هناك عدد غير قليل من قراء سفر الرؤيا فى كل عصر، بما فى ذلك عصرنا الراهن، تتملكهم فكرة أن النهاية وشيكة. بل إنهم مستعدون لتجاهل الحقيقة الصريحة بأن العالم لم ينته بعد كما هو متنبأ به، ويواصلون التنقيب فى نص الرؤيا فى محاولة جديدة لتحديد تاريخ نهايته بدقة. ويجانبهم الصواب أيضًا بالطبع، ولكن لا شىء يثبط من عزمهم فيقلبون فى النص ويحاورون الأرقام للخروج بموعد لا بد للعالم من أن ينتهى فيه. ولم يمر قرن واحد من الزمان منذ أن جف حبر سفر الرؤيا دون أن تظهر نبوءة جديدة عن الموعد الدقيق الذى ستتحقق فيه نبوءاته.

ويتسم كاتب سفر الرؤيا بغل شديد، وهو من المؤمنين بالمبدأ البسيط القائل إن من ليس معه فهو ضده. فيحمل على منافسيه من المبشرين ويصفهم بأنهم فاسقون وأدعياء نبوة. ويكيل الشتائم لإخوته المسيحيين ممن يتهمهم بالافتقار إلى الحماس الكافى لحمَل الرب. ويوجه أقسى الإهانات لليهود؛ لأنهم لا يؤمنون بأن يسوع هو المسيح، ويصر على أن المسيحيين هم اليهود الحقيقيون الوحيدون. ويخص كل من ينغمس فى ملذات الدنيا لا سيما المرابين باحتقار خاص. وفى لمحة من المغالاة الكلامية التى تعد السمة المميزة لسفر الرؤيا، يدين الكاتب خصومه بأنهم ليسوا آثمين أو خطائين أو مجرمين وحسب، بل أفسدتهم «أَعْمَاقَ الشَّيْطَانِ» فسادًا تامًّا(٤٣).

وتتضح اللاوسطية الأخلاقية فى سفر الرؤيا ـ كل امرئ وكل شىء فى العالم إما خير مطلق أو شر مطلق ـ فى حرص الكاتب على إيراد المتناقضات معًا. فالزانية العظيمة توأم الشر لـ «امْرَأَةٌ مُتَسَرْبِلَةٌ بِالشَّمْسِ»، والوحش هو المقابل البغيض لحمَل الرب، ودمار بابل «أم الزوانى» يعقبه ظهور أورشليم [القدس] الجديدة على شكل بناء من البلور والأحجار الثمينة يهبط من السماء. وهنا نجد نظرية لاهوتية من الإقصاء لا ترحم، فالقديسون والشهداء سيخلدون فى النعيم فى رأى كاتب الرؤيا، بينما يحترق بقية البشر فى الجحيم. بل إن سفر الرؤيا يتقد بمتعة الانتقام المؤجل.

إذن فكاتب سفر الرؤيا مجدد راديكالى لليهودية، كيسوع بصورته التى ورد بها فى الأناجيل، إلا أن كلا منهما يسير فى اتجاه عكس الآخر. فيوصى الرب فى العهد القديم

العبرى قائلاً: «حِب جارك» (وليس جارك وحده بل «الْغَرِيبُ النَّازِلُ فِي وَسَطِكُمْ» أيضًا). فيستشهد يسوع بالوصية اليهودية التقليدية ثم يكثفها بقوله: «أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ»[٤٤]. فى حين أن كاتب سفر الرؤيا يعد قراءه وسامعيه صراحةً بأن الرب سينتقم بنفسه من أعدائهم وظالميهم فى نوبة من العنف الإلهى لا توصف إلا بأنها مَحرقة.

يقول الكاتب الروائى د. هـ. لورنس الذى أفزعه ما وجد فى سفر الرؤيا إلى حد دفعه لأن يكتب تعليقًا خاصًّا عليه: «إن النصف الثانى من سفر الرؤيا عبارة عن بغض منمق وشوق صرف ... لنهاية العالم». ورسم كاتب سفر الرؤيا «خطة مهيبة لإبادة كل من لم يكن من النخبة المصطفاة وكل من لا يصعد بنفسه مباشرةً إلى عرش الرب»[٤٥].

وهكذا فإن الدمار النهائى لـ «بَابِلُ الْعَظِيمَةُ أُمُّ الزَّوَانِي وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ» ـ رمز روما الوثنية بخاصة وخطايا البشر بعامة عند كاتب السفر ـ يبين الشوق إلى الانتقام الذى يدركه لورنس فى النص. يقول كاتب الرؤيا دون أدنى صلة بحب المسيحية للبر، بل بتشفٍّ خالص فى أعدائه وما ألم بهم من نوازل: «مِنْ أَجْلِ ذلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ سَتَأْتِي ضَرَبَاتُهَا: مَوْتٌ وَحُزْنٌ وَجُوعٌ وَتَحْتَرِقُ بِالنَّارِ» و«افْرَحِي لَهَا أَيَّتُهَا السَّمَاءُ وَالرُّسُلُ الْقِدِّيسُونَ وَالأَنْبِيَاءُ لأَنَّ الرَّبَّ دَانَهَا دَيْنُونَتَكُمْ»[٤٦]. وفى ذروة رؤياه لنهاية العالم تتملك كاتب الرؤيا رغبة عارمة (وتفتقر للذوق) لمشاهدة أعدائه وهم يعانون ويهلكون.

ويناشد حمَل الرب حامل السيف قائلاً: «جَازُوهَا كَمَا هِيَ أَيْضًا جَازَتْكُمْ» و«وَضَاعِفُوا لَهَا ضِعْفًا نَظِيرَ أَعْمَالِهَا فِي الْكَأْسِ الَّتِي مَزَجَتْ فِيهَا امْزُجُوا لَهَا ضِعْفًا بِقَدْرِ مَا مَجَّدَتْ نَفْسَهَا وَتَنَعَّمَتْ بِقَدْرِ ذلِكَ أَعْطُوهَا عَذَابًا وَحُزْنًا»[٤٧].

والعذر المعهود لهذا التجاوز الكلامى هو أن سفر الرؤيا بمثابة دعاية تهدف لرفع معنويات ضحايا الظلم والاضطهاد «رسائل موجهة من المتنبئين الرؤيويين لمن عانوا الفزع وتملكهم الرعب»[٤٨]. لذا فإننا نجد أحد علماء اللاهوت المحدثين يعتبر Letter from a Birmingham Jail (رسالة من أحد سجون برمنجهام) لمارتن لوثر كنج،

بمثابة بيانًا رسميًّا مثيرًا لحركة الحقوق المدنية الأمريكية يعكس «تجارب وتطلعات تشبه لاهوت سفر الرؤيا»[٤٩]. إلا أن بعض الباحثين فى فترة لاحقة ذهبوا إلى أن مؤلف سفر الرؤيا نفسه ربما لم يكن معرضًا لخطر التعذيب والقتل فى ذلك الوقت وفى المكان الذى عاش فيه ودون عمله. بل ثبت أن منطق سفر الرؤيا مقنع لمن يعتبرون أنفسهم مضطهَدين بقدر ما هو مقنع لمن عانوا الاضطهاد فعلاً.

هناك راهبة تسمى تيريز دى ليزييه عاشت فى فرنسا فى القرن التاسع عشر، ورد عنها أنها قالت قبل وفاتها نتيجة للمرض فى سن الرابعة والعشرين: «حين يرد على خاطرى صنوف العذاب المقدرة على المسيحيين فى عصر عدو المسيح، أشعر كأن قلبى يقفز فرحًا لأنى نجوت من هذا العذاب»[٥٠].

ولكن صحيح أيضًا أن سفر الرؤيا يدفع بعض قرائه المتحمسين من حين لآخر لتنفيذ نزواتهم الخاصة فى الانتقام والشهادة. يقول أحد الباحثين المعاصرين: «إن الثقة فى قرب النهاية تواكبها أفعال خطيرة»[٥١]. فهناك ــ على سبيل المثال ــ شاب يدعى فيرنن هاول انضم لطائفة رؤيوية تعرف باسم «طائفة الداوديين» وأطلق على نفسه كنية «داڤيد كورش» فى إشارة رمزية لشخصيتين مسيحانيتين من شخصيات الكتاب المقدس العبرى، وقاد أتباعه إلى الشهادة، وقوبل الأمر بفتور من عناصر تنفيذ القانون الاتحادى، وكل ذلك لاقتناعه بأن الرب أوحى له بأن معركة أرمجدون مقدر لها أن تبدأ فى واكو بولاية تكساس. وكورش نموذج عادى لظاهرة موغلة فى القدم، وسنرى كيف أثر الفكر الرؤيوى على العقول المضطربة على مدار القرون العشرين الماضية.

وهناك قراءات حديثة لسفر الرؤيا تثير الضحك إن لم تكن مروعة. إذ يلجأ من يتاجرون من المحدثين فى نبوءة نهاية العالم إلى النص التوراتى القديم بحثًا عن تفسير لظواهر مختلفة حقيقية أو تخيلية تحدث فى عصرنا الذى يتملكه القلق، ومنها اختطافهم من قبل مخلوقات من الفضاء الخارجى والأطباق الطائرة والانتشار النووى واغتيال كنيدى والثورة الجنسية والثورة الرقمية ووباء الإيدز وغيرها كثير «نموذج لشهية الأمريكيين المتعطشة لغير المألوف والغريب والمثير» حسب قول أحد الباحثين[٥٢]. وسفر

الرؤيا الذى يتخيل وجود مؤامرة كبرى لأمراء وقوى وإمارات يعملون فى خدمة الشيطان، يغذى حتى أغرب التهيؤات الارتيابية عن خفايا العالم الذى نحيا فيه.

وفوق هذا وذاك يعد سفر الرؤيا حاليًّا ـ ودائمًا ـ سلاحًا كلاميًّا قويًّا فى نوع ما من الحروب الثقافية، وهى حرب القيم المتنافسة والتطلعات المتنازعة التى تنشب على مر تاريخ البشرية. فمؤلف سفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ يدين أى مسيحى يشارك فى متع الحضارة التقليدية ونواتجها فى ذروة إنجازاتها الخالدة فى الفن والأدب والفلسفة. وعندما نادى ساڤونارولا فى أتباع أبرشيته أن يلقوا بلوحاتهم وأشيائهم الجميلة فى نار الأباطيل ـ وبذلك يجعلون من فلورنسا «أورشليم [القدس] الجديدة» التى وعد بها سفر الرؤيا ـ كان يخوض حربًا ثقافية على ما كان وثنية فى نظره ونهضة فى نظرنا. والقارئ المعاصر حين يقحم الكتاب المقدس فى الجدل العام المسموم حول دور الدين فى الديمقراطية الأمريكية يشن حربًا مماثلة من جديد.

هناك قاض اتحادى من الأصوليين الدينيين عين مؤخرًا وأثار ترشيحه لهذا المنصب أزمة فى مجلس النواب الأمريكى أعلن قائلاً: «إنها ليست حربًا بالرصاص، لكنها حرب. نحن فى وقت عصيب على أهل الإيمان لا بمعنى أننا مهددون بالموت، بل بمعنى أن هناك ما ستفقده لو كنتَ من أهل الدين ودافعتَ عما تؤمن به وصرحتَ بذلك جهارًا»(٥٣).

إذن فلا مجال لرفض سفر الرؤيا باعتباره شذوذا عن الكتاب المقدس ولا يخص إلا علماء اللاهوت المتخصصين ووعاظ الإعلام وقلة من المهووسين. والحقيقة أن سفر الرؤيا أصبح فى نظر بعض أهل السلطة والنفوذ مصدر إلهام، إن لم يكن دليلاً إلهيًّا لإدارة دفة الحرب والدبلوماسية وشئون الدولة فى عالم الواقع. فحين انتقل رونالد ريجان إلى بيت رقمه فى الشارع ٦٦٦ أصر على تغيير العنوان إلى رقم أقل شيطانية، وما لبث أن أوَّل اضطرابًا عاديًّا وقع فى ليبيا بأنه تحقيق لنبوءة فى الكتاب المقدس وأعلن قائلاً: «هذه علامة على أن معركة أرمجدون الفاصلة ليست ببعيدة. كل شىء يتحقق فى أوانه المحدد. والوقت أزف»(٥٤).

معتقدات كهذه لها خطرها من رجل توفرت له السلطة لأن يشعل أرمجدون نووية على عدو سماه «إمبراطورية الشر»، ولكنه إشارة منحرفة أخرى لسفر الرؤيا. إلا أن ريجان ليس السياسى الأمريكى الوحيد الذى يعتنق هذه المعتقدات. فكل شاغلى البيت الأبيض منذ عهد ريجان ـ والعديد من مستشاريهم وثقاتهم ـ أعلنوا أنهم «مولودون ثانيًا»، وهو وصف يربطهم بضرب من الأصولية الدينية يسلم جدلاً بصحة نبوءات الكتاب المقدس وحتميتها، بما فى ذلك نبوءات آخر الزمان بسفر الرؤيا. وهذه الحَرفية فى قراءة الكتاب المقدس كانت مشكلة فى نظر السلطات المسيحية الأولى فى أواخر العصور القديمة، وهى كذلك فى الحرب الثقافية التى تخوضها أمريكا حاليًّا.

بل إن سفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ بعد قليل يمثل «مخزونًا لغويًّا» فى العديد من النزاعات الاجتماعية والثقافية والسياسية فى تاريخ الغرب(٥٥). فكثيرًا ما يدفع سفر الرؤيا بعض الخطرين إلى تحقيق نبوءاتهم الرؤيوية الخاصة، والأهم أن الجوهر الأخلاقى لسفر الرؤيا ـ إضفاء سمات شيطانية على الأعداء وتقديس الثأر وفكرة أن التاريخ لا بد أن ينتهى بكارثة ـ يمكن استشفافه فى بعض أسوأ التجاوزات والفظائع فى كل عصر بما فى ذلك عصرنا الراهن.

لهذه الأسباب كافة، يتجاهل بقيتنا سفر الرؤيا ولكن على حساب علمنا، بل بما يعرضنا للخطر.

❁ ❁ ❁